المستويات الدلالية
لمصطلح الاستشراف
من خلال الحديث النبوي الشريف

أ.م.د. عبد الكريم علي المغاري
كلية الإمام الأعظم الجامعة

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى أله وصحبه أجمعين :

وبعد: فإن أعلى ما تبلغ به نفس الإنسان سمواً حينما يريد أن يكون عبداً لله ، وهذه العبودية بابها الرئيس هو الذل والانكسار للواحد القهار وطريق ذلك هو خدمة هذا الدين العظيم، بكل ما فيه لأن الله ارتضاه لنا ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[1] .

ولما كان هذا المؤتمر المبارك يدور حول الاستشراف النبوي، رأيت مناسباً أن يكون مجال بحثي في دائرة الاختصاص الدقيق وهو (الدلالة) ليكون موسوماً بـ(المستويات الدلالية لمصطلح الاستشراف، من خلال الحديث النبوي الشريف) .

ومن هنا نهضت خطة البحث بمقدمة، وفصول، الأول منها: المستوى الصرفي، والثاني ضم المستوى النحوي، والثالث كان في المستوى السياقي، والرابع تناول المستوى السياقي، والخامس المستوى الأسلوبي، ثم ختمت البحث بالنتائج .

(١) سورة البقرة: الآية (١٣٢) .

الفصل الأول
المستوى الصرفي

لا تخفى على أي دارس مكانة الصرف بكل فروعه في بيان دلالة الألفاظ من خلال:

١. الفكر في بنية المفردة من حيث أصل اشتقاقها .

٢. النظر في أمثلة الجذر الواحد.

٣. بيان المعنى المعجمي من خلال الصيغة المختلفة .

ومن هنا عرِّف (المستوى الصرفي بأنه يُنظر فيه إلى بنية الكلمة ثم إلى تصريفها، وما يمكن فيها من معنى الزمن إن كانت فعلاً أو معنى التذكير والتأنيث والإفراد والتثنية والجمع ..... الخ)[١].

ومصطلح (الاستشراف) أحد صيغ علم الصرف وأحد أبنيته، وبقليل من التأمل في أصل (استشراف) نعرف انه مشتق من (شَرَف) بفتح العين أو (شَرُف) بضمها، وهذا الأصل قد يكون حسيا وقد يكون معنويا، يقول ابن الأثير: أصل الاستشراف: هو العلوّ كأنه ينظر إليه من موضع مرتفع فيكون أكثر لإدراكه، وأصل ذلك أن تضع يدك على حاجبك وتنظر كالذي يستظل من الشمس حتى يستبين الشيء.[٢]

ويؤكد ذلك الزبيدي أن الشرف من البعير سنامه [٣] والشرف ما أشرف من الأرض، واستشرف فلان: رفع رأسه ينظر إلى شيء[٤] وقال الخطابي والشرف من الأرض أعلاه[٥]

---

(١) ينظر في نحو اللغة وتراكيبها، د. خليل أحمد عمايرة: ٢٦، و علم الدلالة نظرية وتطبيقاً د. نور الهدى لوشن: ٨٤ .

(٢) ينظر النهاية في غريب الحديث والأثر لمجد الدين ابن الأثير: ٢/ ١٤٢ .

(٣) ينظر تاج العروس، محمد مرتضى الزبيدي: ٢٣/ ٤٩٣ .

(٤) ينظر العين، للخليل بن أحمد الفراهيدي: ٦/ ٢٥٢ .

(٥) ينظر غريب الحديث للخطابي، أحمد بن محمد بن إبراهيم: ١/ ٥٢٢ .

والمعنى الآخر وهو المعنوي يكون غالبا في صيغة (فَعُلَ) بضم العين قال ابن منظور: وقد شرُف بالضم فهو شريف اليوم وشارف وكذا (شرَف) بالفتح يدل على علو وارتفاع[1] والذي يظهر مما سبق أن أصل الاستشراف مأخوذ من الدلالة الحسية وعليه قول العسكري والشرف إنما هو في الأصل شرف المكان .... ثم استعمل في كرم النسب فقيل للقرشي شريف. [2]

وصيغة (الاستشراف) هي مزيدة على الثلاثي ووزنها (استفعال) كما لا يخفى، وهذه البنية فيها معنى الطلب حقيقة أم مجازا [3] في أغلب استعمالاتها وذلك أن الطلب للفعل والتماسه والسعي فيه والتأني لوقوعه تقدمه ثم وقعت الإجابة إليه، فتبع الفعل السؤال فيه والتسبب لوقوعه. [4]

❊ ❊ ❊

(١) ينظر لسان العرب، جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور: ٩/ ١٦٩ .
(٢) ينظر الفروق في اللغة، لأبي هلال العسكري: ٢٤٣ .
(٣) ينظر اتحاف الطرف في علم الصرف، ياسين الحافظ: ٤٩، ٧٩ .
(٤) ينظر الخصائص لأبي الفتح عثمان بن جني: ٢/ ١٥٤، والاقتراح لأبي بكر السيوطي: ٣٦ .

الفصل الثاني
المستوى النحوي

وهو الذي يبحث تراكيب الألفاظ وتأثير بعضها على بعض من ناحية أواخر الألفاظ، فالعلاقة بين المستوى الصرفي والنحوي لا تنفك أبدا، إذ لابدّ من صيغ مختلفة ومتغيرة حتى ينشأ التأثير النحوي أي إعمال العوامل فتؤدي إلى تغير أواخر هذه الصيغ لذلك هما جزءان لعلم واحد [1]

ومصطلح (الاستشراف) كما مرّ مصدر والمصادر تعمل عمل فعلها، وقد تبين مما سبق أن له أصلان اشتقاقيان أحدهما (شرُف) من الباب الخامس يدل على انضمام الصفة في ذات الموصوف فهي صفة غير متعدية فما أخذ من هذه الصيغة فيقال شريف وشرف، والآخر (شَرَف) بالفتح فهي أيضا تأتي غالبا لازمة وقد تستعمل متعدية يقال: (شَرَفْتُهُ و شَرَفْتُ عليه وشَرَّفْتُهُ) [2]

وحينما نقول أن (الاستشراف) أصله فعلان لازمان فهي إذن لا تتعدى إلا بأسباب التعدية فتارة بالتشديد وتارة بالزيادة ...الخ . ولا يتضح ذلك إلا إذا وقفنا على تراكيب نحوية لبيان المستوى النحوي لذلك سنأخذ أمثلة من حديث نبينا ﷺ لتأكيد ما قلناه :

ورد: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَشْرَفَ عَلَى قَتْلَى أُحُدٍ فَقَالَ إِنِّي أَشْهَدُ عَلَى هَؤُلَاءِ زَمِّلُوهُمْ بِكُلُومِهِمْ وَدِمَائِهِمْ[3]، ومن هذا الحديث نلحظ أن (أشرف) فعل تعدى بـ(على) .

(١) ينظر فقه اللغة في الكتب العربية د. عبده الراجحي: ١٤٤ .
(٢) ينظر المخصص لابن سيده الأندلسي: ١/ ٢٣٨ .
(٣) مسند أحمد بن حنبل الشيباني: ٣٩/ ٦٤ .

وقوله ﷺ: «سَتَكُونُ فِتَنٌ القَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ القَائِم، وَالقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ المَاشِي، وَالمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي، وَمَنْ يُشْرِفْ لَهَا تَسْتَشْرِفْهُ، وَمَنْ وَجَدَ مَلْجَأً أَوْ مَعَاذًا فَلْيَعُذْ بِهِ»[1]، الفعل هنا (يشرف) تعدى باللام . ومثله قوله ﷺ: «سَتَكُونُ فِتَنٌ كَرِيَاحِ الصَّيْفِ الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ، وَالْقَائِمُ خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي، مَنِ اسْتَشْرَفَ لَهَا اسْتَشْرَفَتْهُ»[2]، وفي الوقت نفسه نلحظ أن (تستشرفه) (استشرفته) تعديا بنفسيهما .

وأما في رواية مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ قَالَ: «اتَّقُوا هَذِهِ الْفِتَنَ فَإِنَّهُ لَا يَسْتَشْرِفُ إِلَيْهَا أَحَدٌ إِلَّا اسْتَبَقَتْهُ ، أَلَا إِنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ لَهُمْ أَجَلٌ وَمُدَّةٌ ، لَوْ أَجْمَعَ مَنْ فِي الْأَرْضِ أَنْ يُزِيلُوا مُلْكَهُمْ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى يَكُونَ اللهُ هُوَ الَّذِي يَأْذَنُ فِيهِ ، أَتَسْتَطِيعُونَ أَنْ تُزِيلُوا هَذِهِ الْجِبَالَ»[3]، فإن (إلى) كانت سببا لتعدية (يستشرف) .

ومن هنا يقال: (الاستشراف) لما كان من علو مكان أو علو منزلة فلابد من فاعل لحدث الاستشراف يطلب العلو أي أن هناك عملاً من المصدر وهو (الاستشراف) في المفعول أو الفاعل من إضافة المصدر إلى فاعله أو مفعوله .

وحينما يضاف الاستشراف إلى (النبوي) فإن ذلك يمثل مركباً نحوياً من المضاف والمضاف إليه وهذا المركب حديث النشأة حساً قديم النشأة واقعاً ومعنى منذ أن بعث رسول الله ﷺ وهو يخبر عن أمور ستكون، أو ستحدث أو تشاهد، أو تعاصر من قبل أجيال البشر عموماً .

ولو تأملنا ذلك لفهمنا أن الاستشراف منسوب إلى جهة النبوة وهو أحد معاني الإضافة في اللغة العربية، فقد أضيفت هذه الصيغة وكأن المعنى: الاستشراف عند رسول

(١) صحيح البخاري: ٤/ ١٩٨ برقم (٣٦٠١).
(٢) مسند أبي يعلى الموصلي، أحمد بن علي بن المثنى: ١٠/ ٣٧٣ .
(٣) مصنف ابن أبي شيبة: ٦/ ٢٠٢ .

الله ﷺ، ما معناه وما مراده وماذا يراد بالأحاديث التي ورد فيه لفظ الاستشراف ؟ !، ولا يخفى أن المعنى لا يظهر بصورة تامة إلا بعد الوقوف على جميع المستويات الدلالية وهذا ماسنعرفه فيما يأتي من الفصول .

❊ ❊ ❊

الفصل الثالث
المستوى المعجمي

ويقصد به دلالة (المفردة) في معاجم اللغة[1] مجردة عن تأثيرات السياق، وهذا المستوى يأتي في المرتبة الثالثة بعد معرفة أصل الصيغة وأثر هذه الصيغة النحوي، وبه يتوصل إلى معرفة كبيرة للمعاني غير أنها غير كافية للقطع بالمعنى المراد .

ومصطلح الاستشراف مصدر كما مرّ ومعنى المصدر يتبين أكثر إذا عرفنا معاني (شَرَفَ) في اللغة علماً أن مصطلح الاستشراف لم يرد في القرآن ولا في حديث رسول الله ﷺ ولذلك يمكن الوقوف على دلالته من خلال معرفة مشتقاته .

يقول أهل اللغة: الشَرَفُ: العلوُّ، والمكان العالي. قال الشاعر:

آتي النِّـديَّ فـلا يُقَـرَّبُ مَجْلِـسي وأَقـودُ للـشرفِ الرفيـعِ حِمـاري

يقول: إنِّي خَرِفْتُ فلا يُنتفع برأيي، وكبِرتُ فلا أستطيع أن أركب من الأرض حماري إلامن مكان عال، وجبل مُشْرِفٌ عالٍ. ورجلٌ شَريفٌ، والجمع شرفاء وأشراف، مثل يتيم وأيتام. وقد شرف بالضم فهو شَريفٌ اليومَ، وشارِفٌ عن قليل، أي سيصير شريفا. وشرفه الله تَشْريفاً. ويقال شَرَفْتُهُ أَشْرُفُهُ شَرْفاً، أي غلبته بالشَرَفِ فهو مِشْروفٌ، وفلانٌ أَشْرَفُ منه. ومَنْكِبٌ أَشْرَفُ، أي عالٍ. وشُرفَة القصر: واحدةُ الشُرَفِ. وشُرْفَةُ المالِ أيضاً: خِيارُه. والشارِفُ: المُسِنَّةُ من النوق، وأشرفت عليه، أي اطلعت عليه من فوق، وذلك الموضع مَشْرَفٌ. ومَشارِفُ الأرض: أعاليها. وشارفت الشيء، أي أَشْرَفْتُ عليه.

(١) ينظر ظاهرة الإعراب في النحو العربي د. أحمد سليمان ياقوت: ٧٧، و أسرار اللغة، د. إبراهيم أنيس: ٢٩ وعلم الدلالة، كلود جيرمان، وريمون لوبلون: ٢٤، ترجمة د.نور الهدى لوشن .

والاشتِرافُ: الانتصابُ. وفرسٌ مشترف، أي مشرف الخلق.[١]

وَاسْتَشْرَفْتُ الشَّيْءَ رَفَعْتُ الْبَصَرَ أَنْظُرُ إلَيْهِ وَأَشْرَفْتُ عَلَيْهِ بِالْأَلِفِ اطَّلَعْتُ عَلَيْهِ وَأَشْرَفَ الْمَوْضِعُ ارْتَفَعَ فَهُوَ مُشْرِفٌ

وَشُرْفَةُ الْقَصْرِ جَمْعُهَا شُرَفٌ مِثْلُ: غُرْفَةٍ وَغُرَفٍ.

وَمَشَارِفُ الْأَرْضِ أَعَالِيهَا الْوَاحِدُ مَشْرَفٌ بِفَتْحِ الْمِيمِ وَالرَّاءِ.[٢]

ولم يبعد شرّاح الحديث عما قاله أهل اللغة كقول أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إن رسول الله ﷺ قال: ((لا يزنى الزانى وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن)) ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها ومعنى (ذات شرف)، قال: بشين معجمة مفتوحة أي ذات قدر عظيم وقيل ذات استشراف يتشرف الناس بها ناظرين إليها رافعي أبصارهم.[٣]

وقال القاضي عياض عن لفظ (الشارف)، المسن من الأبل وجمع الشارف شُرُف[٤]

وقال أيضاً (يشرف) هو الانتصاب والتعرض والتطلع[٥]

(١) ينظر الصحاح إسماعيل بن حماد الجوهري: ٤/ ١٣٨١ .
(٢) ينظر المصباح المنير أحمد بن محمد الفيومي: ١/ ٣١٠ وينظر لسان العرب: ٩/ ١٦٩ .
(٣) ينظر الديباج على صحيح مسلم، أبو بكر السيوطي: ١/ ٧٧ .
(٤) ينظر إكمال المعلم شرح صحيح مسلم للقاضي عياض: ٦/ ٢٢٤ .
(٥) المصدر نفسه: ٨/ ٨١٠ .

الفصل الرابع
المستوى السياقي

وإذا عرفنا دلالة (الاستشراف) من خلال الصيغة والتأثير النحوي ثم استعمال هذه المفردة في المعاجم اللغوية حريٌّ بنا هنا ونحن ندرس (الاستشراف) المختص بالحضرة النبوية الشريفة أن ننظر إلى ما بعد هذه المستويات المتقدمة فهناك يتبين لنا أثر (المستوى السياقي) الذي هو دراسة الكلمة داخل التركيب أو التشكيل الذي ترد فيه، إذ لا يظهر معنى الكلمة الحقيقي، أو لا تتحدد دلالتها إلا من خلال السياق بضروبه المختلفة.(١)

وكذلك مستوى الحال وهو ماكان خارج اللغة من صلة بالحديث اللغوي أو النص ويتمثل في الظروف الاجتماعية والنفسية والثقافية للمتكلم والمشتركين في الكلام أيضاً.(٢)

ومتى دل الشيء على معنى فقد أخبر عنه وإن كان صامتاً، وأشار إليه وإن كان ساكناً، وهذا القول شائعٌ في جميع اللغات.(٣)

وسنورد ههنا أمثلة مختلفة تعبر عن أثر السياق ودلالة الحال في بيان مشتقات (الاستشراف) .

عن طلحة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول إن من التواضع الرضا بالدون من شرف

(١) ينظر علم الدلالة دراسة وتطبيقاً: ٩٥ .

(٢) ينظر الكلمة دراسة لغوية معجمية، د. حلمي خليل: ١٦١ .

(٣) ينظر البيان والتبيين، عمرو بن بحر الجاحظ: ١/ ٨١، وينظر أميّة النبي ﷺ بين المعنى اللغوي والدلالة السياقية د. خير جبير الجميلي: ٢٣٥ .

المجالس.[1] فالسياق دال على أن معنى (شرف) هنا هو الرفعة حسا كان أم معنى إذ (المجالس)، (مفاعل) من (مفعل) يدل على الزمان والمكان .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ إِذَا قَفَلَ مِنْ غَزْوٍ أَوْ حَجٍّ أَوْ عُمْرَةٍ، يُكَبِّرُ عَلَى كُلِّ شَرَفٍ مِنَ الأَرْضِ ثَلاَثَ تَكْبِيرَاتٍ.....الخ[2]، وكلمة (شَرَف) هو المكان المرتفع بدليل السياق اللفظي وهي كلمة (الأرض) .

وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ ((لَا يَسْرِقُ سَارِقٌ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَا يَزْنِي زَانٍ حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَا يَشْرَبُ الشَّارِبُ حِينَ يَشْرَبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ يَعْنِي الْخَمْرَ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ وَلَا يَنْتَهِبُ أَحَدُكُمْ نُهْبَةً ذَاتَ شَرَفٍ يَرْفَعُ إِلَيْهِ الْمُؤْمِنُونَ أَعْيُنَهُمْ فِيهَا وَهُوَ حِينَ يَنْتَهِبُهَا مُؤْمِنٌ وَلَا يَغِلُّ أَحَدُكُمْ حِينَ يَغِلُّ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَإِيَّاكُمْ إِيَّاكُمْ))[3] وسياق الكلام أي انه ما ينهب ذو قيمة وقدر، حتى يتطلع إليه الناس بأعينهم، ولأن حد السرقة له قدر مشروط في الفقه كما لا يخفى .

قال رسول الله ﷺ (شرف المؤمن صلاته بالليل، وعزه واستغناؤه عما في أيدي الناس[4] أي بذاته ورفعة نفسه .

ونجد عنوانات تدل على معنى حسي كما في سنن أبي داود يقول: [باب فِي التَّكْبِيرِ عَلَى كُلِّ شَرَفٍ فِي المسِيرِ][5]

وأما قوله ﷺ ((ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويعرف شرف كبيرنا))[6] أي قدر كبيرنا

(١) ينظر الأحاديث المختارة، ضياء الدين المقدسي: ٣/ ٤٠ .
(٢) ينظر صحيح البخاري: ٣/ ٧ برقم (١٧٩٧) .
(٣) ينظر مسند أحمد: ١٣/ ٥٢١ .
(٤) ينظر صحيح كنوز السنة النبوية، بارع عرفان توفيق: ٣٥ .
(٥) ينظر سنن أبي داود: ٣/ ٤٣ .
(٦) ينظر سنن الترمذي، محمد أبو عيسى الترمذي: ٤/ ٥٢١ .

بدليل أن يعرف هنا بمعنى يعلم .

وقوله ﷺ: ((مَا ذِئْبَانِ ضَارِيَانِ جَائِعَانِ فِي غَنَمٍ افْتَرَقَتْ، أَحَدُهُمَا فِي أَوَّلِهَا، وَالْآخَرُ فِي آخِرِهَا بِأَسْرَعَ فَسَادًا مِن امْرِئٍ فِي دِينِهِ يُحِبُّ شَرَفَ الدُّنْيَا وَمَالَهَا))[1] أي علوها وجاهها .

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ أَشْرَفَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الشُّهَدَاءِ الَّذِينَ قُتِلُوا يَوْمَئِذٍ، فَقَالَ: " زَمِّلُوهُمْ بِدِمَائِهِمْ فَإِنِّي عَلَيْهِمْ شَهِيدٌ " وَكَانَ يُدْفَنُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ وَالثَّلَاثَةُ فِي الْقَبْرِ الْوَاحِدِ، وَيَسْأَلُ أَيُّهُمْ كَانَ أَقْرَأَ لِلْقُرْآنِ فَيُقَدِّمُونَهُ. قَالَ جَابِرٌ فَدُفِنَ أَبِي وَعَمِّي يَوْمَئِذٍ فِي قَبْرٍ وَاحِدٍ[2] نلحظ أن معنى (أشرف على الشهداء) أي وقف قريباً منهم .

و سُئِلَ ﷺ: أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «إِيمَانٌ لَا شَكَّ فِيهِ، وَجِهَادٌ لَا غُلُولَ فِيهِ، وَحَجَّةٌ مَبْرُورَةٌ» قِيلَ: أَيُّ الصَّلَاةِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «طُولُ الْقِيَامِ» قِيلَ: فَأَيُّ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «جَهْدٌ مِنْ مُقِلٍّ» قِيلَ: فَأَيُّ الْهِجْرَةِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «مَنْ هَجَرَ مَا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ» قِيلَ: فَأَيُّ الْجِهَادِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «مَنْ جَاهَدَ الْمُشْرِكِينَ بِمَالِهِ وَنَفْسِهِ» قِيلَ: فَأَيُّ الْقَتْلِ أَشْرَفُ؟ قَالَ: «مَنْ أُهْرِيقَ دَمُهُ، وَعُقِرَ جَوَادُهُ»[3] أي القتل أشرف، أي أرفع أنواع الشهادة .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَلَسَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ رَجُلَانِ أَحَدُهُمَا أَشْرَفُ مِنَ الْآخَرِ فَعَطَسَ الشَّرِيفُ فَلَمْ يَحْمَدِ اللَّهَ فَلَمْ يُشَمِّتْهُ النَّبِيُّ ﷺ، ثُمَّ عَطَسَ الْآخَرُ فَحَمِدَ اللَّهَ فَشَمَّتَهُ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ الشَّرِيفُ: عَطَسْتُ فَلَمْ تُشَمِّتْنِي وَعَطَسَ هَذَا فَشَمَّتَّهُ قَالَ: «إِنَّكَ نَسِيتَ اللَّهَ فَنَسِيتُكَ وَإِنَّ هَذَا ذَكَرَ اللهَ فَذَكَرْتُهُ»[4] وسياق الحال يدل على الشرف وهو المنزلة.

---

(١) ينظر مسند أبي يعلى الموصلي: ١١/ ٣٣١ .

(٢) ينظر السنن الكبرى للبيهقي، أبو بكر أحمد بن حسين: ٤/ ١٧ .

(٣) ينظر السنن الكبرى للبيهقي: ٤/ ٣٠٢ .

(٤) ينظر المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري: ٤/ ٢٩٤ .

مَا يَقُولُ إِذَا أَشْرَفَ عَلَى المدِينَةِ[1]، إذا كانت المدينة في وادٍ فهذا يعني أن النظر من علو وإلا فإن (أشرف) هنا تدل على التقارب من الشيء تدريجيا بدليل استعمال الشراح أبوابا بعنوان (باب مَا يَقُولُ إِذَا أَشْرَفَ عَلَى وَادٍ).[2] وكذلك ما رواه الإمام أحمد عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ أَشْرَفَ عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ الْقَصْرِ وَهُوَ مَحْصُورٌ فَقَالَ أَنْشُدُ بِاللَّهِ مَنْ شَهِدَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ حِرَاءٍ إِذْ اهْتَزَّ الْجَبَلُ فَرَكَلَهُ بِقَدَمِهِ ثُمَّ قَالَ اسْكُنْ حِرَاءُ لَيْسَ عَلَيْكَ إِلَّا نَبِيٌّ أَوْ صِدِّيقٌ أَوْ شَهِيدٌ وَأَنَا مَعَهُ فَانْتَشَدَ لَهُ رِجَالٌ قَالَ أَنْشُدُ بِاللَّهِ مَنْ شَهِدَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ إِذْ بَعَثَنِي إِلَى الْمُشْرِكِينَ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ قَالَ هَذِهِ يَدِي وَهَذِهِ يَدُ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَبَايَعَ لِي فَانْتَشَدَ لَهُ رِجَالٌ قَالَ أَنْشُدُ بِاللَّهِ مَنْ شَهِدَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ مَنْ يُوَسِّعُ لَنَا بِهَذَا الْبَيْتِ فِي الْمَسْجِدِ بِبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ فَابْتَعْتُهُ مِنْ مَالِي فَوَسَّعْتُ بِهِ الْمَسْجِدَ فَانْتَشَدَ لَهُ رِجَالٌ قَالَ وَأَنْشُدُ بِاللَّهِ مَنْ شَهِدَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ جَيْشِ الْعُسْرَةِ قَالَ مَنْ يُنْفِقُ الْيَوْمَ نَفَقَةً مُتَقَبَّلَةً فَجَهَّزْتُ نِصْفَ الْجَيْشِ مِنْ مَالِي قَالَ فَانْتَشَدَ لَهُ رِجَالٌ وَأَنْشُدُ بِاللَّهِ مَنْ شَهِدَ رُومَةَ يُبَاعُ مَاؤُهَا ابْنَ السَّبِيلِ فَابْتَعْتُهَا مِنْ مَالِي فَأَبَحْتُهَا لِابْنِ السَّبِيلِ قَالَ فَانْتَشَدَ لَهُ رِجَالٌ.[3]

وبنفس الدلالة السابقة ((لَمَّا أَشْرَفَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الْمَقْبُرَةِ وَهِيَ عَلَى طَرِيقِهِ الْأُولَى أَشَارَ بِيَدِهِ وَرَاءَ الضَّفِيرِ أَوْ قَالَ وَرَاءَ الضَّفِيرَةِ شَكَّ عَبْدُ الرَّزَّاقِ فَقَالَ نِعْمَ الْمَقْبُرَةُ هَذِهِ فَقُلْتُ لِلَّذِي أَخْبَرَنِي أَخَصَّ الشِّعْبَ قَالَ هَكَذَا قَالَ فَلَمْ يُخْبِرْنِي أَنَّهُ خَصَّ شَيْئًا إِلَّا كَذَلِكَ أَشَارَ بِيَدِهِ وَرَاءَ الضَّفِيرَةِ أَوْ الضَّفِيرِ وَكُنَّا نَسْمَعُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَصَّ الشِّعْبَ الْمُقَابِلَ لِلْبَيْتِ.[4]

وفي حديث: «لَأَبْعَثَنَّ رَجُلًا يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ لَا يُخْزِيهِ اللهُ أَبَدًا،

(١) ينظر السنن الكبرى للنسائي، أحمد بن شعيب النسائي: ٤/ ٢٤٦ .
(٢) ينظر السنن الكبرى للنسائي: ٩/ ١٩٨ .
(٣) ينظر مسند أحمد: ١/ ٤٧٩ .
(٤) ينظر مسند أحمد: ٥/ ٤٢٨ .

فَأَشْرَفَ مَنِ اسْتَشْرَفَ» قَالَ: «أَيْنَ عَلِيٌّ وَهُوَ ابْنُ أَبِي طَالِبٍ؟ وَهُوَ فِي الرَّحَى يَطْحَنُ فَدَعَاهُ، وَهُوَ أَرْمَدُ مَا يَكَادُ أَنْ يُبْصِرَ فَنَفَثَ فِي عَيْنَيْهِ، وَهَزَّ الرَّايَةَ ثَلَاثًا فَدَفَعَهَا إِلَيْهِ فَجَاءَ بِصَفِيَّةَ بِنْتِ حُيَيٍّ»[1] فـ(أشرف) معناه اقترب من أراد تشريفاً وعلو منزلة وقدر .

وبعد هذه الأمثلة ووضوح معناها المعجمي إلا أن ذلك غير كاف في ظل الافتقار إلى الدلالة السياقية والتي تطورت فعرفت بالنظرية السياقية، والتي ترى أن معنى الكلمة يتحدد من خلال استخدامها الفعلي أو تسييقها، فالمعنى ليس شيئاً في الذهن وليس علاقة متبادلة بين اللفظ والصورة الذهنية، وإنما هو مجموعة من الارتباطات اللغوية التي نعرفها في موقف معين، ويحددها لنا السياق.[2]

واما الدلالة البعيدة عن معنى العلو والمنزلة (حسا ومعنى) فنجدها في أحاديث منها: (لَمَّا كَانَ يَوْمُ الجُرْعَةِ قِيلَ لِحُذَيْفَةَ: أَلَا تَخْرُجُ مَعَ النَّاسِ؟ قَالَ: «مَا يُخْرِجُنِي مَعَهُمْ؟» قَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُمْ لَمْ يُهْرِيقُوا بَيْنَهُمْ مُحْجِمًا مِنْ دَمٍ حَتَّى يَرْجِعُوا ، وَلَقَدْ ذُكِرَ فِي حَدِيثِ الْجُرْعَةِ حَدِيثٌ كَثِيرٌ: «مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهِ مَا فِي بَيْتِكُمْ ، إِنَّ الْفِتْنَةَ تَسْتَشْرِفُ مَنِ اسْتَشْرَفَ لَهَا»[3] ومشتقات (استشرف) هنا تدل على انغماس صاحبها في الفتنة لأنه لم يتورع عنها بالابتعاد وعدم الخوض فيها .

أَنَّ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ: «كَانَتْ لِي شَارِفٌ مِنْ نَصِيبِي مِنَ الْمَغْنَمِ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَعْطَانِي شَارِفًا مِنَ الْخُمُسِ، فَلَمَّا أَرَدْتُ أَنْ أَبْتَنِيَ بِفَاطِمَةَ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَاعَدْتُ رَجُلًا صَوَّاغًا مِنْ بَنِي قَيْنُقَاعَ أَنْ يَرْتَحِلَ مَعِي، فَنَأْتِيَ بِإِذْخِرٍ أَرَدْتُ أَنْ أَبِيعَهُ مِنَ الصَّوَّاغِينَ،

(١) ينظر السنن الكبرى للنسائي: ٨/ ١٧ وينظر مسند أحمد: ٥/ ١٧٩ .

(٢) ينظر علم الدلالة، أحمد مختار عمر: ٦٨، والدلالة في المعجم العربي المعاصر، د.عمرو مدكور: ١٢٢.

(٣) ينظر مصنف ابن أبي شيبة: ٧/ ٤٥٤ .

وَأَسْتَعِينَ بِهِ فِي وَلِيمَةِ عُرُسِي»[1] ولا يخفى بعد الدلالة لـ(شارف) عن العلو والمنزلة هنا.

عن ابن جريج أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا رأى البيت رفع يديه وقال: «اللهم زِدْ هذا البيت تشريفاً وتعظيماً، وتكريماً ومهابةً، وزِدْ مَنْ شَرَّفَه وكَرَّمه وعَظَّمه ممن حجَّه أو اعتَمَرَه تشريفاً وتكريماً وتعظيماً وبراً»[2] نجد دلالة (فعّل تفعيلاً) تفيد مبالغة الرفعة والقدر لأن السياق فيه دعاء وكثرة .

عَنْ عَبْدِ اللهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «النِّسَاءُ عَوْرَةٌ، وَإِنَّ الْمَرْأَةَ لَتَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهَا بِلِبَاسٍ يَسْتَشْرِفُهَا الشَّيْطَانُ يَقُولُ: مَا مَرَرْتِ بِأَحَدٍ إِلَّا أَعْجَبْتِه، وَإِنَّ الْمَرْأَةَ لَتَلْبَسُ ثِيَابَهَا فَيُقَالُ لَهَا: أَيْنَ تُرِيدِينَ؟ فَتَقُولُ: أَعُودُ مَرِيضًا، أَشْهَدُ جَنَازَةً، أُصَلِّي فِي مَسْجِدٍ، وَمَا عَبَدَتِ امْرَأَةٌ رَبَّهَا بِمِثْلِ أَنْ تَعْبُدَ فِي بَيْتِهَا»[3] وسياق (يستشرفها الشيطان) دال على معنى الحديث أي أن الشيطان قريب من الإنسان ويقترب من المرأة فيوسوس لها أي أن الاستشراف هنا بعيد عن دلالة (العلو والرفعة) .

❊ ❊ ❊

(١) ينظر صحيح البخاري: ٣/ ٦٠ برقم (٢٠٨٩)، وصحيح مسلم: ٣/ ١٥٦٩ برقم (١٩٧٩) .
(٢) ينظر السنن الصغرى للبيهقي: ٤/ ١٣٩ .
(٣) ينظر شعب الإيمان للبيهقي،: ١٠/ ٢٣٨ .

الفصل الخامس
المستوى الأسلوبي

وبعد هذا الطرح لما مضى من المستويات الدلالية نورد ههنا أهم هذه المستويات إذ أن هذا المستوى وأعني به – المستوى الأسلوبي- يعنى بكشف شخصية المتكلم وقدرته ومكانته اللغوية والبلاغية، ونحن هنا بصدد بيان الاستشراف النبوي أي إرادة الوقوف عند حضرة رسول الله ﷺ وهو يخبرنا عن معاني شرف بصيغ متنوعة .

ويعرف مستوى الأسلوب بأنه (تلك القدرة التي تتكون لدى فرد من أفراد مجتمع معين والتي تمكنه من تكوين ما يريد من الجمل الجديدة في المناسبات المختلفة)[1]

وأسلوب رسول الله ﷺ أسلوب تكون في مجتمع هو فيه أميّ ومع ذلك حباه الله بطريقة كلامية أشاد بها دارسوا اللغة العربية وبلاغتها، ومن خلال الأمثلة النبوية المباركة التي أوردناها نجد أن (الاستشراف) تباين معناه واستعماله حسب المقام، فمنه تنبيه على أمرٍ من الأمور ومنه دلالة على قيام الساعة وقربها ومنه ما يدل على المعاني الحسية وغيرها . وهناك ما يدل على التقارب المكاني المتدرج بمثل ما تدل عليه أفعال المقاربة .

وكل ذلك يبين مكانته ﷺ إذ (الأسلوبية تكشف عن الكثير من المميزات لأصحابها حتى يمكن من خلال الأسلوب أن تحدد الشخصية) [2]

ولما كان رسول الله ﷺ عربياً فصيحاً كان أسلوبه جارياً على النهج اللغوي الأصيل وهي طريقة تختلف عن غيرها من طرق التعبير لأن الأسلوب اللغوي هي طريقة المتكلم في التعبير والتفكير وفي طريقة تصوره للأشياء وفهمه لها وكل أولئك يخالف فيه الآخرين على نحو ما.[3]

---

(١) ينظر البلاغة والأسلوبية، محمد عبد المطلب: ٣٢ .
(٢) ينظر الأصول، دراسة إبستمولوجية، د.تمام حسان: ٧٩ . وعلم الدلالة دراسة وتطبيقاً: ٩١ .
(٣) ينظر تحت راية القرآن، مصطفى صادق الرافعي: ١٧ .

الخاتمة

وبعد حمد الله والثناء عليه، وكثرة الصلاة والسلام على رسوله وآله وصحبه ومن والاه، إلى يوم الدين .

فهذه نتائج ليست قليلة، وفوائد ليست صغيرة، منها :

١. مصطلح (الاستشراف) له أصلان اشتقاقيان (شَرَفَ، و شَرُفَ) .

٢. غالباً ما يرد هذا الأصل (لازماً وقد يتعدى) .

٣. تنوع دلالات الصيغ المستعملة في الحديث النبوي الشريف في المعاجم اللغوية .

٤. كشف السياق عن معانٍ لصيقة بالمادة اللغوية في أصل اشتقاق (الاستشراف) في أحاديث مختلفة وكذا معانٍ مجازية ابتعدت عن حقيقة المعنى الأصلي .

٥. أسلوب رسول الله ﷺ برز في استعمال صيغة (شرف) ومشتقاته وكشف عن معانٍ مختلفة من المعاني الإسلامية وهي قواعد هذا الدين، منها: الترغيب والترهيب، وتجنب الفتن والوقاية منها، وإنزال الناس منازلهم، ومنها المحافظة على حق المرأة، ومنها منزلة الشهادة، وهذا كله بأسلوب فصيح ومتنوع، فتارة نجد (شرف) يتعدى بنفسه وأخرى بحرف مساعد، وأخرى بالتصنيف وغير ذلك .

٦. ان في (الاستشراف) النبوي لمحة من خلال ما تبين ان (استفعل) أي طلب، فإن المعنى هنا أن (الاستشراف) يطلب النبيَّ، أي كأن معاني (الاستشراف) المختلفة من العلو والزمان والمكان والرفعة والقدر كلها تطلب رسول الله ﷺ، ولمحة أخرى – نحن نسعى وراء (الاستشراف)، والاستشراف يسعى وراء (مصدر الشرف كله) .

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

المصادر

١. النهاية في غريب الحديث، مجد الدين المبارك بن محمد بن الأثير الجزري (القاهرة، ١٩٧٩م).

٢. في نحو اللغة وتراكيبها، د.خليل عمايرة (ط ١، د.ت – ١٩٨٤م).

٣. علم الدلالة، د.نور الهدى لوشن (ط ١ – بنغازي – ١٩٩٥م).

٤. تاج العروس، محمد مرتضى الزبيدي (مطبعة الكويت – ١٩٧٣).

٥. كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، (بغداد، ١٩٨٦م).

٦. غريب الحديث للخطابي حمد بن محمد بن ابراهيم البستي (جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٠٢هـ).

٧. لسان العرب، جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور (دار صادر – بيروت).

٨. الفروق في اللغة، أبو هلال العسكري (ط ١ – دار الآفاق الجديدة – بيروت ١٩٩١م).

٩. مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس (دار الفكر – ١٩٧٩م).

١٠. اتحاف الطرف في فن الصرف، ياسين الحافظ، (دار العصماء، دمشق – ٢٠٠٤م).

١١. الخصائص، أبو الفتح، عثمان بن جني (عالم الكتب – بيروت).

١٢. الاقتراح، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ط ١، القاهرة، ١٩٧٦م).

١٣. فقه اللغة في الكتب العربية، د. عبده الراجحي (دار النهضة – بيروت – ١٩٧٩م).

١٤. المخصص، أبو الحسن علي بن اسماعيل ابن سيده (ط ١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٦م).

١٥. أسرار اللغة العربية، د.إبراهيم أنيس (ط ٧ – مكتبة الأنجلو – مصر – ١٩٩٥م).

١٦. علم الدلالة – كلود جرمان، وريمون لوبلون، ترجمة د.نور الهدى لوشن، ط ١،

المكتب الجامعي – مصر د.ت .
١٧. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد بن محمد بن علي الفيومي (المكتبة العلمية – بيروت) .
١٨. الصحاح، اسماعيل الجوهري، (ط ٣، دار العلم للملايين، بيروت – ١٩٨٤م) .
١٩. الديباج على مسلم – عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (دار ابن عفان) .
٢٠. صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري (دار الجيل – بيروت) .
٢١. إكمال المعلم في شرح صحيح مسلم للقاضي عياض (دار الجيل – بيروت) .
٢٢. الكلمة دلالة لغوية معجمية، د.حلمي خليل، (ط ٢ – دار المعرفة الجامعية – مصر – ١٩٩٣) .
٢٣. الاحاديث المختارة، الضياء المقدسي (دار الجيل – بيروت) .
٢٤. صحيح البخاري، محمد بن اسماعيل الجعفي، (ط ١، دار طوق النجاة، ١٤٢٢هـ).
٢٥. مسند أبي يعلى أحمد بن علي بن المثنى الوصلي (ط ١ – دار المأمون للتراث، دمشق، ١٩٨٤) .
٢٦. مسند احمد، احمد بن حنبل الشيباني (ط – المعارف – مصر – ١٩٥٠م) .
٢٧. صحيح كنوز السنة – بارع عرفان توفيق (دار المأمون للتراث – دمشق – ١٩٨٤م).
٢٨. سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، دار الفكر – بيروت .
٢٩. السنن الكبرى للبيهقي، أبو بكر أحمد بن حسين (ط ١ – حيدر اباد – ١٣٤٤هـ).
٣٠. المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري ط – المعارف – الهند .
٣١. سنن النسائي، أحمد بن شعيب النسائي (ط ٢، مكتبة المطبوعات – حلب) .
٣٢. سنن النسائي الكبرى، أحمد بن شعيب النسائي (ط ١، دار الكتب العلمية –

بيروت) .
٣٣. مصنف ابن أبي شيبة الكوفي، (ط ١، مكتبة الرشد، الرياض، ١٤٠٩٠هـ) .
٣٤. البلاغة والأسلوبية، محمد عبد المطلب (الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤م).
٣٥. الأصول، دراسة ابستمولوجية – د.تمام حسان .
٣٦. تحت راية القرآن، مصطفى صادق الرافعي (ط ٦، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ١٩٦٦م) .
٣٧. الدلالة في المعجم العربي المعاصر، د.عمرو مدكور (ط – دار البصائر – مصر – ٢٠٠٨م) .
٣٨. علم الدلالة . د. أحمد مختار عمر (ط ١، دار العروبة – كويت – ١٩٨٢م) .
٣٩. البيان والتبيين، عمرو بن بحر الجاحظ (القاهرة – ١٩٦٠م) .
٤٠. أمية النبي ﷺ (بين المعنى اللغوي والدلالة السياقية) د.خيري الجميلي، بحث منشور – مجلة كلية الإمام الأعظم – العدد الخامس – سنة ٢٠٠٧م .
٤١. سنن الترمذي، أبو عيسى الترمذي، دار احياء التراث – بيروت .
٤٢. السنن الصغرى للبيهقي أحمد بن الحسين بن علي (دار حيدر آباد، ١٣٤٤هـ) .
٤٣. شعب الإيمان، أحمد بن حسين البيهقي – ط ١ – الرشد – الرياض – ٢٠٠٣م .